العمل (*)

لئن كان للطبيعة حق الأولوية في احداث الثروة سواء في أرضها الخصبة، أو في احراشها الكثيفة، أو في مناجمها الكثيرة المعادن، أو في مراعيها الغزيرة الكلأ، أو في أنهارها المتدفقة بالخيرات، فان المدار في استثمار كل ذلك على العمل ولو قليلا . فلا بد من فلح الارض و بذر الحبوب قبل أن تجود الطبيعة بنعمائها، وتبذل الارض غلتها، ولا بد من احتفار المناجم قبل استخراج كنوزها، ولا بد من جني الثمار قبل التمتع بلذيذ طعمها . فالعمل ضروري للعمران، ولازم لكل موجود، وهو للموارد الطبيعية التي هي ينابيع الثروة بمثابة الدلو من البئر، إذ لولاه ما قدر أحد على الاغتراف منها .

وقد وفى الدين العمل قسطه من المدح حيث حث على التمسك به، فقال عز وجل في سورة مريم (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، فكلي واشربي وقري عينا) وهو أمر به، لانه إذا كان جل شأنه يأمر السيدة مريم وهي في وقت المخاض بهز جذع النخلة قبل أن يتساقط عليها الثمر، مع انه قادر على أن يكفيها مؤونة ذلك التعب، فمن البديهي انه يأمر كل فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية بالسعي في تحصيل رزقه، ولاسيما إذا كان صحيح الجسم . وقال تعالى في آية أخرى (وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا) أي وقتا يلزم فيه السعي لتحصيل العيش وترقب الرزق بالعمل، وقال (فاذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وهو أمر بوجوب جوب البلاد والضرب في طولها وعرضها، رغبة في العمل والانتفاع بما خلق جلت عظمته من الخيرات، وقال (فابتغوا عند الله الرزق) أي

(*) وعدنا قراء المنار في الجزء الماضي بأننا ننقل لهم طائفة من كتاب الاقتصاد السياسي المفيد، وهذا ما اخترنا نشره وفاء بالوعد، وتحريا للنفع

اعملوا حتى تحصلوا على ما يقوم بضروراتكم ، وقال (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وقال (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى ، فقالوا ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال النبي « لا تقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفيها المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » وقال « احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا » وقال « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب ، خير من أن يأتي رجلا اعطاه الله من فضله فيسأله اعطاه أو منعه » وقال « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » رواه البخاري وهكذا فضل النبي العمل في اية حرفة على الاستنامة الى الكسل ، واراقة ماء الوجه في الطلب . وجاء في الانجيل ما معناه « تأكل خبزك بعرق جبينك » وهو حث على العمل طلبا للارتزاق . وروي إن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام رأى رجلا فقال ما تصنع؟ قال أتعبّد، قال ومن يعولك؟ قال أخي، قال: أخوك أعبد منك . وقال عمر بن الخطاب « ما من موطن يأتيني الموت فيه أحب إليّ من موطن اتسوق فيه لاهلي أبيع وأشتري » وقال « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » وقيل للامام أحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ، فقال أحمد « هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي . وقوله عليه السلام حين ذكر الطير فقال: تغدو خماصا وتروح بطانا، فذكر انها تغدو في طلب الرزق »

هكذا يحث الدين على العمل ويرغب فيه مراعاة لتقدم العمران ، ومحافظة على النوع الانساني من الفناء ، ومن ذلك تظهر حطة أولئك الذين يرون التوسل وسيلة للارتزاق ، والتسول حرفة للتعيش ، أولئك الذين لم يعرفوا مزية العمل وعلاقته بالسعادة ، ففضلوا مد أيديهم للسؤال على مدها للعمل ، واستسهلوا أن يكونوا كالكلاب تأكل كل ما يلقى اليها ، أولئك هم الذين يحل الشقاء بالبلد الذي يحلون

فيه، فهم يستفدون ثروته، ويستثمرون خيراته، بدون أن يسعوا في احداثها.

العمل هو أساس الثروة فكيف ينتظر النجاح بدونه، وهو دعامة كل ما تراه في العالم من التقدم في المدنية . ما رأينا بلدا تمسك أهله بأهداب العمل إلا وتحولت فيه الصحارى القفراء الى حدائق غناء، وجادت الارض بكنوزها، وانساب الذهب إلى جيوب أهلها . لولاه لم يصر الترب تبرا، وتتبدل المفاوز بمعاهد للعلوم، ومعابد للنسك، ومعامل للصناعة. لولاه ما ضحكت الارض من بكاء السماء، ولا ابتسمت الازهار في الاكمام، ولا حملت الاشجار لذيذ الثمار من كل زوجين اثنين ، إذ أنه لا بد من غرسها قبل أن تصير دانية ظلالها ، مذللة قطوفها ، ولا غنى عن تعهدها قبل ان تترعرع أغصانها ، وتصير دوحة تناطح السحاب . لولاه ما استنبط الانسان الوسائل التي يسخر بها القوى الطبيعية، ويتغلب على الصعاب، ويقرب المسافات بالبخار والكهرباء، ويجعل كليهما رهين إشارته . لولاه ما أخذت الارض زخرفها ، وبلغت من المدنية غايتها، وبدت آثار العمران في انحائها، وصارت معمورة يتزايد سكانها في كل عام، وتتضاعف ثروتها آناً فآناً .

من ينكر فضل العمل في إحداث الثروة، فليرجع ببصره الكرة الى « استراليا » في الماضي يجدها في آخر درجة من الانحطاط ، لخمول سكانها الاصليين ، وكثرة اتكالهم على الموارد الطبيعية، ويشاهدها الآن وقد نالت من العمران حظا وافرا ، وجرت في المدنية شوطا بعيدا . ذلك لان قوما عرفوا مزية العمل استوطنوها، فنهلوا من تلك الموارد، وعملوا في برها وبحرها، واحتفروا المناجم واستخرجوا كنوزا دفنتها الارض في بطنها اجيالا، وحافظت عليها لمن يقدر العمل حق قدره . فطبيعة تلك البلاد لم تتغير وانما تغير سكانها. بل مالنا وللتمثيل باستراليا، وأمامنا شبه جزيرة العرب التي كانت مهبط رحال المدنية ، ومهبط العلوم والعرفان، ومصدر العمران، مالها قد عفت آثار مدنيتها ، ودالت دولة ملوكها، واندرست معالم علومها، واندثرت معارفها، وصار ذلك المجد القديم، والسؤدد الماضي، أشبه بحلم حالم!! أليس السبب هو ان ذلك السلف الصالح خلف من بعدهم خلف

أضاعوا الجد الموروث، وأهملوا العمل، وتمسكوا باذيال الكسل، حتى صاروا قديما في عالم جديد (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود)

كان « كسناي » وأضرابه يعتبرون الأرض الوسيلة الوحيدة لاحداث الثروة، ويبخسون العمل حقه في الاحداث، وذلك زعم صحيح من جهة ان الارض ينبوع المواد التي تقوم بها الصناعة، فلا يقدر الصانع على نسج ثوب بدون قطن، ويستحيل عليه صناعة آلة حديدية بدون حديد، ولكن « كسناي » بخس العامل حقه، وأنكر عليه تحويله الحديد من شكله الطبيعي حيث لا ينتفع به، الى شكل يصير بواسطته آلة بخارية يتهافت الناس على ابتياعها . أنكر على العالم الكيماوي تركيبه لدواء فيه شفاء للناس من موادطبيعية لا تفيد كثيرا، وهذا مالا ترضاه العدالة، على انه بعد « كسناي » كما قدمنا أتيح للعمل ان يأخذ « آدم سميث » بناصره، ويظهر فضله، ويطنب في مدحه، ومن ثم أخذ مقامه في الصعود، ونجمه في السعود، حتى لقد قال فيه العلامة « جيد » انه هو الجدير دون غيره أن يكون الوسيلة في إحداث الثروة حقيقة، إذ الانسان هو المنتج الحقيقي لها، وما الطبيعة إلا طوع ارادته، يحركها كيف شاءت تلك الارادة

﴿ ١ — أدوار العمل ﴾

عصر الصيد

في ذلك العصر كان الانسان قليل العمل، كثير الاعتماد على الطبيعة، يعيش من صيد البر أو البحر، وكان رحالا كالانعام السائمة، يسكن البقاع الكثيرة القنص، كما تأوي هذه الى المروج الغزيرة الكلأ، ويلقي عصا الترحال اذا قل الصيد، كما تفعل هي اذا غيض الماء أو جفت المراعي . وقد كان في ذلك الدور مهددا بخطرين : الوحوش الكاسرة، والمجاعات المهلكة، لقلة ادخاره، لما يقتات به في اعساره، فالويل له اذا أصابه مرض أقعده عن الصيد، أو انتابه حر أو برد منعه عن مطاردة فريسته، والويل له اذا كان ضعيف الكاية أعداءه (كذا في الاصل) الذين يداهمونه لسلب ما اقتنصه . وكان عدم ادخاره راجعا الى أسباب كثيرة، منها عدم احترام الحقوق، فكل حق مزعزع لا يقدر هو على حمايته، وليس هناك حكومة تدافع عنه، ومنها عدم وجود مسكن له او ذرية في

أغلب الاحيان، ولذا لم يوجد عنده مايدعوه الى الاحتفاظ بالقوت تحرزا للمستقبل.

عصر الرعاية

ولما رأى نفسه معرضا للمجاعات القتالة التي كانت تجتاحه من وقت الى آخر، ورأى أنه ملزم بالنفقة على زوجته وأولاده، توجهت همته الى تدجين الحيوانات النافرة كالابل والخيل والغنم وغيرها، مما كان لاينتفع به كثيرا. ووجد من أهله وذويه من يساعده على رعي تلك الابل والغنم في الوديان والمروج الفسيحة التي تحيط به، والانتقال بها من مكان الى آخر. وفي ذلك العصر ازداد عدد الناس عما كانوا عليه، وتألفت منهم قبائل كثيرة كانت ثروة كل واحدة منهن تقدر بعدد رؤوس الابل أو الغنم التي تملكها، كما كانت الحال عند العرب والتركمان، وكما هي الآن عند العرب الرحالة والزط. ويمكننا ان نعزو كثرة عدد الناس الى سببين (الاول) كثرة نتاج الحيوانات التي كانوا يربونها حتى صاروا في سعة من العيش، فكانوا ينتفعون بألبانها وأوبارها ولحومها وجلودها حتى قلت المجاعات بينهم (الثاني) ازدياد العصبية في كل واحدة من تلك القبائل، مما جعل حق الملكية مضمونا نوع ضمان، وحبب الى كل فرد اقتناء الحيوانات فزادت الثروة وزاد العدد.

عصر الزراعة

وكانت النتيجة الطبيعية لزيادة عدد السكان هي الازدحام على المراعي بالحيوانات مما جعل حشائشها التي غرستها يد الطبيعة غير كافية لسد الحاجة، فعمد الناس الى معالجة الزراعة من اثارة الارض، وبذر الحبوب فيها وتعهدها بالسقي، حتى نبت مايكفي لمؤونتهم ولا نعامهم. واستخدموا في الزراعة كثيرا من تلك الحيوانات، ومن ذلك العصر ظهر العمل بمظهر أجلى، إذ لم يعد الانسان مفوضا كل أموره للطبيعة، يأوي حيث نبتت حشائشها، ويرحل اذا جفت خيراتها، بل أخذ يعول على معوله، فيحول به الارض الجدبة الى مزارع كثيرة الخيرات، وانبنى على رغد عيشه تقدم عظيم في أحواله الادبية، فنظم معيشته وظهرت الحكومات لاول مرة بالمعنى الذي نراها به الآن، ولا حاجة بنا الى القول ان معظم الامم المتمدينة في الزمن الماضي كانت تعالج الزراعة في أول أمرها قبل ان ترسخ قدمها في المدنية. والسبب في ذلك بساطة الزراعة، وعدم

احتياجها الى كثير تفكير أو كبير عناء ، على ان تلك الامم نفسها وجهت همتها بعد ان تم لها الامر الى استجادة الصنائع على اختلاف انواعها .

عصر الصناعة

الصناعة أثر من آثار المدنية تتوجه الهمم اليها عند بزوغ شمسها ، وتستجاد اذا زخر بحر العمران ، والسبب في ذلك راجع الى أمرين (الاول) ان الانسان لا تتوق نفسه الى الكماليات كالصناعات المختلفة الا بعد تحصيل الضروري من مأكل وملبس ، (الثاني) هو ان معظم الصناعات تحتاج الى الممارسة والتعليم ، وهما لا يوجدان في وسط الامم المتوحشة ، ومن الصنائع ما هو مقدم كصناعة النجارة والحدادة والبناء والخياطة ، لان منفعتها ظاهرة لبناء المسكن وعمل الملبس ، ولذا توجد احيانا بحالة ساذجة ، ومنها ما لا يوجد في الامة إلا اذا تفننت وتنوعت أساليب مدنيتها ، كصناعة الرسم وصناعة الطباعة وتجليد الكتب (١) وكلما علا كعب الامة في العمران ابتدعت الصنائع المختلفة ، واستنبطت الاختراعات المفيدة ، وارتقت فيها الاعمال العقلية الضرورية للصنائع كالتعليم والتأليف .

عصر استخدام البخار

على انه مهما يكن من تقدم الصناعة عند بعض الامم في الاحقاب الغابرة فان اختراع البخار في القرن الماضي جعل صناعة الزمن الحاضر متقنة ، وصار العامل بدل ان يستغرق وقتا طويلا في الصناعة ، يدير الآلة البخارية فتكفيه مؤونة التعب .

﴿ ب — الاعمال العقلية ﴾

ولا مشاحة في ان عمل الانسان في الادوار التي تقدمت لم يكن يدويا محضا ، بل لا بد له من أعمال عقلية ولو قليلة ، لانه لا ينتظر أن يصنع الانسان عدة للصيد أو آلة لفلح الارض أو يبذر الحبوب إلا بعد التفكير الذي هو المميز للانسان من الحيوان ، ولا يتصور أن يستوعب الصنائع إلا بعد أن يعرف دقائقها من المعلم ، ويتعلم العلوم المرتبطة بها ، ثم هو لا يقدر على تعهد الارض ما لم يوجد هناك حاكم يمنع عنه تعدي الغير ، ومهندس يسهل له الري ، ولم ينتفع بالآلات البخارية في

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون

الزراعة والصناعة إلا بعد ان أجهد المخترعون « كجيمس وات » وغيره قرائحهم حتى وصلوا الى استخدام البخار. فالاعمال العقلية ضرورية للاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة، وهي مقدمة عليها حتى في أحقر الصنائع .

﴿ ج — الاعمال المنتجة للثروة ﴾

اختلفت الآراء من عصر الى آخر في تحديد الاعمال البشرية التي تكون نتيجتها زيادة ثروة الامم ، أما العرب فكانوا يرون - كما يؤخذ من كلام الحريري وغيره من الحكماء - ان المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة ، وقد قال الخليفة المأمون « الناس أربعة : ذو سيادة أو صناعة ، أو تجارة أو زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم » ويفهم من ذلك ان تلك الاعمال الاربعة هي التي كانت معتبرة محدثة للثروة، بمعنى ان عمل الحاكم الذي يقي البلاد شر العدو ، ويرد المظالم ، وينظم الري، هو عمل يزيد في الثروة، وكذلك عمل الصانع الذي يوجد منافع للمواد الاولية، والتاجر الذي يتوسط في جلب تلك المصنوعات وتسليمها لطالبيها، والزارع الذي يقوم باثارة الارض وبذر الحب فيها حتى تنبت ما يسد الحاجة، وأما اعمال غيرهم فلم تكن محدثة للثروة، وأما الطبيعيون وهم (كسناي) ومن كان على مذهبه فقد تقدم انهم كانوا يعتبرون ان المحدث للثروة من الاعمال ما كانت متعلقة بالارض من إثارتها وحرثها وبذر الحبوب فيها، وبناء على ذلك قسموا الناس الى ثلاث طبقات: طبقة ملاك الاراضي وهم المحدثون للثروة حقيقة، وطبقة الفلاحين وهم الذين يساعدون على هذا الاحداث، وغيرهم من السكان كذوي الامارة وذوي التجارة وذوي الصناعة ، وكانوا يرون هؤلاء عيالا على الطبقتين الاولين . ولكن « آدم سميث » لم ينسج نحو أولئك الاقتصاديين ، فقد اعتبر الصناعة والتجارة والإمارة من الاعمال المنتجة للثروة ، وتبعه من أتى بعده من الاقتصاديين .

ويمكننا أن نقسم الاعمال (أولا) الى ماهي مباشرة لإعداد سلعة من السلع للقيام بسد حاجة من حاجات الانسان، وهذه محدثة للثروة بلا خلاف، مثال ذلك العمل الذي يتكبده كل من حارث الارض و باذر القمح وحاصده ودارسه وطاحنه

وعاجنه وخابزه ، لان كلامنها موجه إلى إعداد الخبز مباشرة، وان تنوعت حالات القمح المراد جعله خبزا (ثانيا) الى غير مباشرة لإعداد الصنف ، وهذه إما يدوية أو عقلية ، أما الاولى فلا يخلو حالها من أحد أمور خمسة (ا) الاعمال التي يتكبدها الناس في استخراج المواد الاولية اللازمة للصناعة كاحتفار المناجم وتشذيب الاشجار وغير ذلك، وهذه بالطبع منتجة مادامت نتيجتها تستخدم في الصناعة (ب) الاعمال التي تصرف في إعداد الآلات اللازمة لصناعة الصنف ، مثال ذلك شغل الحداد في تجهيز المحراث أو آلة الغزل (ج) الاعمال التي يكون من شأنها بناء المحلات المعدة للصناعة كالمعامل والاحواض ، وهكذا لانه لولا تلك المحال لما توفر إعداد البضائع القطنية مثلا أو المراكب (د) ما يوجه من الاعمال الى الحصول على طعام وكساء ولوازم للصناع مادامت تلك الحاجات غير خارجة عن حد الكفاية، أو للحصول على الفحم اللازم لتسيير الآلات البخارية في حالة ما اذا كان الصانع لا يشتغل بيده (ه) الاعمال التي بواسطتها يمكن نقل الصنف الى حيث يطلبه الناس ، ويدخل فيها عمل الحمالين في البر وصناعة المراكب والآلات البخارية وبناء الاحواض والارصفة وأعمال أمناء النقل والمراكبية وجميع التجار والمتسببين والسماسرة والاعمال التي تحسنت بواسطتها الطرقات وغير ذلك . أما العقلية فمنها ما هو متعلق بالصناعة أو الزراعة أو التجارة، كالاختراع والتأليف وتعليم الصناعات والتفنن في ابتداعها وترويجها ، ولاشك في ان هذه منتجة ، ولا فرق بين أن تكون هذه موجهة الى الزراعة أو الصناعة أو التجارة ، ويدخل تحت هذه أعمال الري على اختلاف أنواعها، وجميع ما تعمله الحكومة أو الاهالي لترقية الصناعة أو التجارة أو الزراعة ، ولا جناح علينا اذا نحن عددنا ضمن تلك الاعمال ما يبذله الفلاسفة والحكماء من الافكار لتصيد الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تبذله الحكومة من بث العدل في الربوع ، والمحافظة على الامن، سواء بسن القوانين أو الاعمال الحربية برية كانت أو بحرية

(المنار) : ان بعض ما أورده المؤلف من الاحاديث لا صحة لاصله أو سنده وان كان صحيحا في معناه ووضعه